الفصل الأول

تصنيف مناهج البحث التربوى و النفسى والاجتماعى
فى ضوء بُعد الزمن

obeikandl.com

مقدمة.

أولاً : المنهج التاريخى (دراسة الماضى).

ثانيًا : المنهج الأمبيريقى (دراسة الحاضر).

ثالثًا : المنهج التنبؤى (منهج البحوث المستقبلية).

كلمة ختامية.

obeikandl.com

مقدمة:

يتناول هذا الفصل ثلاثة مناهج فى البحث العلمى فى ضوء بعد واحد هو الزمن فى شكل بحوث ودراسات تهتم بأحداث الماضى وبحوث ودراسات تهتم بأحداث الحاضر، وبحوث ودراسات تتطلع إلى استشراف المستقبل.

تشير البحوث التاريخية إلى أنها ليست مجرد خوض فى الماضى دون جدوى للحاضر والمستقبل، ذلك أن هذه البحوث تفيد مختلف العلوم فى نواحٍ كثيرة؛ لعل أهمها أنها تقدم منظورًا يمكن من خلاله الوصول إلى فهم أفضل للقضايا موضع البحث من خلال معرفة جذورها وأصولها من حيث النشأة والتطور التى تتخذها خلال مراحل تطورها المختلفة، وبذلك يمكن بها إدراك الكثير من مشكلات الحاضر، والمعاونة فى التنبؤ باتجاهات المستقبل.

وإذا كان المنهج التاريخى هو دراسة للماضى، فإن المنهج التجريبى أو الأمبيريقى هو دراسة للوضع الراهن أو دراسة للحاضر، حيث تهتم البحوث والدراسات الأمبيريقية بالدور الإيجابى للباحث فى ملاحظة الظاهرة، وجمع المعلومات عن الحالات التى عليها هذه الظاهرات وقت دراستها؛ وليس مجرد الاعتماد على البيانات التى وفرها الآخرون للباحث فى شكل مراجع أولية أو ثانوية؛ كما هو الحال فى المنهج التاريخى.

كما أن اهتمام الإنسان بالمستقبل لم يكن أبدًا أقل من اهتمامه بالماضى، والحاضر، وعلى الرغم من أنه نجح فى الوصول إلى مناهج للبحث تلائم الماضى ممثلًا فى المنهج التاريخى، وتلائم الحاضر ممثلًا فى المنهج الأمبيريقى، فإن الإنسان فى مجال البحوث المستقبلية لم تزل جهوده فى بداياتها. وبشئ من التفصيل تدور الموضوعات حول هذه المناهج الثلاثة ويختتم المؤلف هذا الفصل بكلمة تعقيبية.

أولاً: المنهج التاريخى Historical method:

تمهيد:

يهتم الباحثون عامة بالمنهج التاريخى لإتساع المجالات التى يُستخدم فيها. فهو لا يقتصر على الدراسات التاريخية فى علم التاريخ، وإنما يستخدم أيضًا بدرجات متفاوتة فى مجالات أخرى؛ كالمجالات التربوية والنفسية، وفى مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وغيرها من المجالات. فقد يتناول بعض الباحثين دراسات تاريخية فى هذه المجالات. وفضلًا عن ذلك فإن الكثير من الدراسات فى المجالات المختلفة تخصص فى معظم الحالات فصلًا معينًا فى رسالة البحث، للدراسات والبحوث السابقة التى أجريت فى فترات ماضية، وترجع أهمية هذا إلى أن معرفة نتائج البحوث السابقة أمر له أهميته بالنسبة للمشتغلين فى هذه المجالات لأنها تزودهم ببيانات ونتائج معينة تتصل بأفكار واتجاهات أو ممارسات معينة فى الماضى ترتبط بموضوعات بحوثهم فى هذه المجالات. ومثل هذه الدراسة لها طبيعة تاريخية، ويمكن أن يخضعها الباحثون للنقد والتحليل، ويستفيدون من ذلك فى اختيار موضوعات جديدة تمامًا لبحوثهم، أو موضوعات تتصل بهذه النتائج وذات طبيعة تاريخية تطورية.

(جابر عبد الحميد، وخيرى كاظم، ١٩٧٨: ١١٢).

وإذا كانت البيانات التى يتناولها البحث فى العلوم الإنسانية والاجتماعية يمكن تصنيفها فى ضوء بعد الزمن؛ فإن الماضى هو اهتمام البحث التاريخى؛ سواء كان هذا التاريخ للسياسة، أم للمجتمع، أم للعلم، أم للفن.

ويذكر كل من " فؤاد أبو حطب وآمال صادق " (١٩٩٦: ٥٦) أن على من يتصدى لدراسة التاريخ أن يتسلح بمنهج المؤرخ؛ فالباحث الذى يتصدى لتناول مشكلة تربوية أو اجتماعية، او نفسية فى إطارها التاريخى عليه أن يلتزم بهذا المنهج، وإلا اعتبر ما يكتبه محض مقالات تصلح للنشر للقارئ العام فى الصحف السيارة ولا ينتمى إلى نطاق البحث العلمى الذى يخاطب نخبة المتخصصين. ويصدق هذا

القول على بعض ما يجرى على أنه بحوث فى تاريخ التربية، أو تاريخ الموسيقى، أو تاريخ الفن، أو تاريخ العلم.

تعريف منهج البحث التاريخى :

يمكن تعريف منهج البحث التاريخى بأنه الطريقة التى يستخدمها الباحث فى التاريخ للوصول إلى الحقيقة. أى الطريقة التى يستخدمها فى جمع البيانات والمعلومات وتحليلها تحليلًا موضوعيًا، ويختبر بها فروضه التى تتصل بالأسباب والنتائج.. والتى يصف بها ويسجل ما مضى من وقائع وتفسيرها على أسس علمية دقيقة بغية الوصول إلى حقائق وتعميمات تساعده على فهم الماضى والحاضر والتنبؤ إن أمكن بالمستقبل .

وعادةً ما يثار سؤال: هل المنهج التاريخى فى البحث منهج علمى؟ مع أننا فى المنهج التاريخى لا نعتمد على التجربة العلمية المضبوطة، ولا يمكن أن نكرر الحصول على حقائق ووقائع علمية معينة، كما لا يمكن استخدام الملاحظة المباشرة الدقيقة. والإجابة هى أنه بالرغم من كل ذلك؛ فإن المنهج التاريخى منهج علمى، إذا حرص الباحث على مراعاة وتطبيق خصائص وأسس المنهج العلمى فى الدراسات التاريخية كلما أمكن ذلك. وليست التجربة وحدها، أو التوصل إلى قوانين وتعميمات معينة لها خصائص القوانين والتعميمات فى العلوم الطبيعية هى التى تفرق بين منهج علمى وآخر غير علمى .

والسبب فى ذلك أن هناك خصائص ومعايير أخرى متعددة مثل الدقة والصحة والموضوعية، والأمانة الفكرية، والقياس الكمى، وإدراك العلاقات وغيرها مما يمكن تطبيقها فى المنهج التاريخى. فضلًا عن أن الدراسة التاريخية تستلزم تناول مشكلات معينة وتحديدها فى وضوح ودقة، وجمع البيانات وتنظيمها والتحقق منها وإثبات صحتها، واستخدام أسلوب فرض الفروض، والتحليل والتفسير، والتوصل إلى نتائج تساعد على فهم الحاضر، وربطه بالماضى، وكذلك التنبؤ بالمستقبل، وهذه جميعها تجعل من المنهج التاريخى منهجًا علميًا. (حسن عبد العال، ٢٠٠٤: ١٢٩).

أهمية المنهج التاريخى فى المجال النفسى :

يمكن القول أن البحوث فى تاريخ علم النفس ما هى إلا تطبيق للطريقة التكوينية (الارتقائية أو التطورية) على علم النفس ذاته، وهى بالتالى تستلزم وتتضمن الدراسة الناقدة لتطور الفروض والنظريات والأساليب والاكتشافات النفسية، كما يستخدم المنهج التاريخى فى حل مشكلات نفسية معينة .

كما أن هناك سؤال يطرح نفسه ونحن نتحدث عن أهمية هذا المنهج والسؤال: ما هى أهمية البحوث التاريخية فى العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية؟ والإجابة هى أن هذه البحوث تفيد مختلف العلوم فى نواح عديدة لعل أهمها أنها تقدم منظورًا يمكن من خلاله الوصول إلى فهم أفضل للقضايا موضع البحث من خلال معرفة جذورها، وأصولها من حيث النشأة والتطور، التى تتخذها خلال مراحل تطورها المختلفة. وبهذا يمكن بها إدراك الكثير من مشكلات الحاضر، والمعاونة فى التنبؤ باتجاهات المستقبل .

من ناحية أخرى يمكن أن نصنِّف الدراسات التاريخية وفوائدها فى علم النفس على النحو الآتى (ألفت حقى، ١٩٨٣ : ٤٣٥):

(١) دراسات تتبعية مسحية لمفاهيم سيكولوجية أو نفسية معينة مثل تلك الدراسات المرتبطة بنظرية المثير والاستجابة، والاشتراط، والتعزيز، والنظرية الجشطلتية وغيرها وتطبيقاتهم فى مجالات التعليم والتعلم .

(٢) دراسات مسحية لفترات زمنية معينة يتناول فيها الباحث شخصيات من علماء النفس المشهورين والمفكرين الذين أسهموا فى المعرفة النفسية وتطبيقاتها، مثل تاريخ علم النفس عند المفكرين الإغريق، أو عند الفلاسفة والمفكرين المسلمين أو تاريخ مدارس معينة فى علم النفس وعرض التطورات فى أفكارها ونظرياتها وتطبيقاتها التى جاءت نتيجة الإسهامات العلمية لشخصيات إنسانية فى تاريخها. مثل مدرسة الغرائز والسلوكيين والتحليل النفسى وارتباطها بعلماء أمثال " مكدوجل، وفرويد، وآدلر ."

(٣) ويمكن أيضًا أن تتناول الدراسات التاريخية فى علم النفس العلماء البارزين الذين أسهموا إسهامات ذات دلالة فى المجال النفسى أمثال ابن خلدون وابن سينا من المفكرين العرب، وثورندايك وبافلوف، وواطسون، وسكينر، وألبورت من العلماء فى الغرب .

(٤) دراسات تاريخية لتطور علم النفس فى فترة زمنية معينة مثل دراسات توضح أهم التطورات النفسية وانعكاساتها على الميدان التربوى مثلًا فى القرن التاسع عشر أو من مطلع القرن العشرين المنصرم إلى وقتنا الحاضر.

خطوات البحث التاريخى:

خطوات البحث التاريخى هى فى أساسها نفس خطوات الأنواع الأخرى من البحوث، وهى تحديد المشكلة، وصياغة الفروض (أو طرح تساؤلات)، وجمع البيانات بطريقة منظمة، والتقويم الموضوعى للبيانات، والتثبت من صحة الفروض أو دحضها .

وفى الصفحات التالية يمكن أن نذكر خطوات البحث التاريخى وعملياته الأساسية على النحو التالى :

الخطوة الأولى: اختيار موضوع البحث :

إن كل دراسة تاريخية تبدأ باختيار موضوع معين أو مشكلة معينة من الموضوعات، أو المشكلات التاريخية التى تحتاج إلى دراسة وبحث. وليس هذا بالعمل البسيط أو الهين، ويوضح هذا أن اختيار موضوع معين للبحث التاريخى يتحدد عادةً فى ضوء الإجابة عن أسئلة أربع محددة تلك التى تستخدم فى نفس الوقت كمعايير لاختيار موضوع البحث التاريخى. وهذه الأسئلة هى :

- أين وقعت الأحداث التى سيدرسها الباحث؟
- من هم الأشخاص الذين دارت حولهم أو اتصلت بهم الأحداث والوقائع؟
- متى وقعت هذه الأحداث ولماذا وقعت؟
- ما أنواع النشاط الإنسانى الذى يدور حولها البحث؟

معايير اختيار موضوع البحث :

ذكرنا آنفًا أن الإجابة عن أسئلة أربع محددة يمكن أن تكون هى المعايير لاختيار موضوع البحث التاريخى بالإضافة إلى معايير أخرى، وبذلك يمكن القول أن هذه المعايير هى :

(أ) أن هناك مكانًا وقعت فيه الأحداث .

(ب) أن هناك أشخاصًا دارت حولهم أو اتصلت بهم الأحداث .

(جـ) أن هناك زمانًا وقعت فيه الأحداث .

(د) أن هناك أسبابًا لوقوع الأحداث .

(هـ) أن هناك أنشطة إنسانية يدور حولها البحث .

(و) أن موضوع البحث قد تم تحديده فى ضوء فكرة مهمة، أو فى ضوء عدد من الأفكار، أو المعتقدات، أو الاتجاهات، أو التقاليد الاجتماعية المهمة؛ ذلك أن عددًا من المؤرخين يرون أن التاريخ ما لم يتضمن أفكارًا مهمة، فسوف لا يكون له أية دلالة أو مغزى .

وبطبيعة الحال، سوف يختلف مجال موضوع البحث باختلاف تحديد الباحث للإجابة عن كل سؤال من الأسئلة الأربع السابقة، وأيضًا بالتزام الباحث بالمعايير الست السابقة. فالمنطقة الجغرافية التى يرتبط بها موضوع البحث أو (المكان الذى وقعت فيه الأحداث) قد تتسع لتشمل منطقة واسعة، وقد تضيق لتشمل منطقةً محدودة، وكذلك فإن الأشخاص الذين تدور حولهم أو اتصلت بهم الأحداث والوقائع، قد يكونون عدة أشخاص، وقد يقل العدد إلى شخصية واحدة فقط، وبالنسبة للفترة الزمنية التى تقع فيها الأحداث فقد تطول وقد تقصر، وقد تتعدد الأسباب وتكثر أو تقل، وكذلك فقد تتعدد وتتنوع أنواع الأنشطة الإنسانية أو تقل .

ويتعين على الباحث عند التفكير فى اختيار موضوع بحثه أن يضع فى اعتباره أمرين مهمين :

أولهما: الميل ـ بغير تحيُّز ـ او استعداده الخاص. إذ ليس هناك ما يجبر الباحث على اختيار موضوع لبحثه لا يشعر فى نفسه بالميل إليه. كما أن اختيار موضوع يميل إليه الباحث سوف يجعله أكثر قدرةً على العمل وأقوى على كشف الحقائق التاريخية .

ثانيهما: السؤال؛ فمن الأمور الضرورية ـ قبل أن يستقر الباحث على اختيار موضوع معين أن يطرح على نفسه بعض الأسئلة من قبيل :

- هل الموضوع الذى فكر فيه الباحث يحتاج إلى أن يكون موضوعًا لبحث علمى؟
- هل الموضوع سبقت دراسته دراسة علمية؟
- هل دراسته فى المرة السابقة تمت بطريقة غير مستوفاة؟
- هل الباحث السابق لم يدرس المادة العلمية الأصلية المعروفة عنه، ولم يوجه إليها نقدًا، ولم يستخلص مضمونها على الوجه الأكمل؟
- هل عندما يقوم بالبحث فى نفس الموضوع السابق دراسته يمكنه أن يكشف عن أصول تاريخية جديدة تبرر إعادة بحث هذا الموضوع من جديد؟

وما إلى ذلك من تساؤلات، إذا كانت الإجابة عنها بالإيجاب فمعنى هذا أن الموضوع يصلح أن يكون بحثًا علميًا باستخدام المنهج التاريخى .

الخطوة الثانية: تحديد مشكلة البحث :

إن البحث التاريخى شأنه شأن أى بحثٍ آخر لابد فيه من تحديد المشكلة. ومن الأمور ذات الأهمية فى البحوث التاريخية أن تحدد مشكلة البحث فى الموضوع الذى اختاره الباحث، بحيث تكون المشكلة سهلة التناول. ومن المهم فى اختيار الموضوع، وبالتبعية فى تحديد المشكلة أن تتوفر له بيانات كافية؛ حيث أن الباحث سيعمل فى حدود ما توفر له من بيانات، فإذا لم تتوفر بيانات كافية، فإن مشكلة البحث لن تتم دراستها أو تناولها على نحوٍ سليم. ولن يختبر الفرض على نحوٍ مناسب وسوف تكون النتائج والاستخلاصات الخاصة بإثبات هذه الفروض أو دحضها فى أحسن الأحوال نتائج واستخلاصات على وجه التقريب .

الخطوة الثالثة: تحديد مصادر البيانات (أو جمع المادة العلمية):

فى هذه الخطوة يتوفر الباحث على جمع المادة العلمية التاريخية ذات الصلة بالموضوع الذى وقع اختيار الباحث عليه، من كافة المصادر الأصلية، وهى الوثائق سواء المنشورة أو غير المنشورة، والأصول المطبوعة، والمخطوطات، والمذكرات الشخصية، واليوميات، وحصر المخلفات والآثار التى تتعلق به .

كما يتعين على الباحث أن يفيد من المراجع العامة ممثلة فيما تحويه دوائر المعارف المتعلقة بموضوع بحثه، وقوائم المراجع (الببليوجرافيا) التى تصدرها الهيئات العلمية المختلفة، وكذلك المؤلفات التى تناولت موضوعه من قريب، أو من بعيد، والتى كتبت بلغات مختلفة، وكذلك الدوريات العلمية التى تصدرها الهيئات العلمية التى تضم أحدث نتائج البحوث العلمية وغير ذلك من مختلف المصادر المتخصصة لكل موضوع على حدة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مصادر البيانات والمعلومات فى البحث التاريخى تُصنف فى فئتين هما: المصادر الأولية والمصادر الثانوية .

أما المصادر الأولية Primary sources فهى تلك المصادر التى تحتوى على المعلومات المباشرة كالوثائق الأصلية، والتقارير التى كتبها المشاركون الفعليون، أو الملاحظون المباشرون، كما أنها تشتمل على الوثائق الحكومية، والرسمية للمؤسسات المختلفة؛ والآثار الباقية من فرد، أو جماعة، أو ثقافة، أو فترة زمنية معينة، وما إلى ذلك .

وأما المصادر الثانوية Secondary sources فهى تلك المصادر التى تحتوى على المعلومات غير المباشرة؛ كالكتب ودوائر المعارف، أو التقارير التى يكتبها أقارب المشاركين فى الحدث والملاحظين له. ويمكن القول أن المصادر الثانوية هى فى العادة نقل عن مصدر أو مصادر أولية بالمواصفات السابقة أو إعادة قراءة لها .

وبطبيعة الحال يفضل استخدام المصادر الأولية على المصادر الثانوية، وكلما ازداد بُعد الشاهد أو الدليل، كانت البيانات المستفادة أقل شمولًا وأقل دقة على الأغلب .

لكن هذا لا يقلل من شأن استخدام المصادر الثانوية فى البحث التاريخى لاسيما البحوث والدراسات التى تجرى للتأريخ لحياة المفكرين، والعلماء، وآثارهم الفكرية فى مجالات العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية. ومن أمثلة ذلك، البحوث التى تُجرى حول الفكر السيكولوجى (النفسى) عند الإمام الغزالى؛ أو الفكر الاجتماعى عند ابن خلدون، أو الفكر التربوى عند ابن جماعة؛ ونظائر ذلك من البحوث التى تجرى على المفكرين الغربيين. فحاجة الباحث هنا إلى الاعتماد على المصادر الأولية المتمثلة فى المؤلفات الأصلية لهؤلاء المفكرين، والعلماء لا تقل عن حاجة الباحث إلى الاعتماد على هذه المصادر عند إجراء بحث حول مشكلة ذات جذور تاريخية، فى أى مجالٍ من هذه المجالات .

(فؤاد أبو حطب، وآمال صادق، مرجع سابق: ٥٨).

وهناك طريقتان يستخدمهما الباحث التاريخى لجمع مادته العلمية وهما :

الأولى: طريقة البطاقات :

حيث تدون الكتابة على عرض واحدٍ فى البطاقة، وعلى وجه واحدٍ لها، ويوضع بكل بطاقة عنوان لكل اقتباس ليوضح ما ورد فيه من معلومات، ويكتب فى صدر البطاقة اسم المصدر، ومؤلفه، ورقم الجزء والصفحة، وتاريخ نشره، ومكانه. وينبغى ألا تحوى البطاقة إلا اقتباس لنقطة واحدة .

ويضع الباحث البطاقات المتماثلة التى تتناول موضوعًا واحدًا أو متشابهًا فى مكان خاص وفقًا لتقسيم خطة بحثه؛ بحيث يسهل الإفادة منها. وقد يسجل الباحث ملاحظاته أو تعليقاته على البطاقة، ويحسن أن يكون ذلك بحبر مغاير لحبر البطاقة حتى لا يختلط مع الاقتباس نفسه .

الثانية: طريقة الدوسيه المُقسَّم :

وهو عبارة عن دوسيه أو ملف توضع فيه فواصل كل واحدٍ منها خاص بفصلٍ من فصول البحث، بحيث يمكن وضع الأوراق بداخله أولًا بأول، كل ورقة فى مكانها من الدوسيه حسب الفصل (حسن عبد العال، ٢٠٠٤: ١٤٤).

ويفضِّل المستخدمون لمنهج البحث التاريخى الطريقة الأولى ـ أعنى طريقة البطاقات ـ لكونها أسهل بكثير فى الاستخدام من الطريقة الثانية، وذلك لسهولة نقل البطاقة من مكانٍ لآخر (من فصل إلى فصل) حيث أن بعض البطاقات قد تخدم أكثر من نقطة واحدة داخل البحث الواحد. ولذلك فإن هذه الطريقة هى الأكثر شيوعًا بين الباحثين .

الخطوة الرابعة: تقويم البيانات :

لابد فى منهج البحث التاريخى من تقويم المادة التاريخية التى يجمعها الباحث والغرض من هذا التقويم هو التأكد من صدق المصدر، وصحة المادة التى يتضمنها أو ينقلها. إذ يتعين على الباحث الذى يستخدم منهج البحث التاريخى أن يفترض مقدمًا؛ أن المعلومات التى يجمعها تحتاج إلى تقويم لإثبات صحتها، وتزداد الحاجة إلى تقويم المادة التاريخية كلما بعد الزمن بين الحدوث واقعة معينة، ووقت تسجيلها، ويلزم الباحث فى عملية التقويم هذه معارف ومهارات واتجاهات معينة حتى يصل إلى أحكام سليمة .

وهناك نوعان من التقويم يتعين إخضاع البيانات لهما :

أولهما: التقويم الخارجى؛ الذى فى ضوئه يتم الحكم على مدى أصالة الوثيقة موضع التناول. وتوجد عوامل كثيرة تحدد أصالة الوثيقة مثل مكانة المؤلف فى سياق الأحداث موضع الاهتمام، وإلى اى حدٍ توفرت إمكانات التسجيل الصحيح، والدقيق والمباشر للأحداث، ومدى اتفاق عوامل الزمان والمكان الواردة فى الوثيقة مع الوقائع الفعلية المرتبطة بالأحداث موضع البحث. ويزداد الأمر صعوبة، حين تكون الوثيقة أو الوثائق من نوع المخطوطات، ويحتاج الباحث التاريخى أن يتدرب جيدًا على فن تحقيق المخطوطات، وهو فن لا يكاد يتقنه إلا القليلون فى مجال العلوم الإنسانية .

ثانيهما: التقويم الداخلى؛ أى تقويم معنى ودقة محتوى الوثيقة، وهو خطوة تالية للنقد الخارجى. ومن المنطقى بالطبع أن يكون التتابع كذلك، فحالما يحكم الباحث بعدم الثقة فى مؤلف الوثيقة يصبح من غير المجدى البحث فى محتواها .

(لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى: فؤاد أبو حطب وآمال صادق، ١٩٩٦: ص ص ٥٦ ـ ٦١).

الخطوة الخامسة: تركيب البيانات :

يشتمل تركيب البيانات على تناول الأفكار والمفاهيم الأساسية والربط بينها، وترتيبها زمنيًا. ويلعب الترتيب الزمنى فى عرض الأحداث دورًا مهمًا فى " معنى التاريخ " ذاته، بالإضافة إلى أهميته فى التمييز بين الأسباب والنتائج .

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الباحث قد يبرز مدى الاتساق فى المعالجات المختلفة لنفس الأحداث التاريخية موضع البحث، كما تناولتها المصادر الأولية، وإلى أى حدٍ يقدم هذا الاتساق دعمًا أو دحضًا تاريخيًا للفرض، أو إجابة عن السؤال بالسلب أو الإيجاب. وقد يتطلب ذلك صياغة فروض أو أسئلة إضافية جديدة، أو تعديل الفروض أو الأسئلة الأصلية .

الخطوة السادسة: العرض التاريخى وكتابة تقرير البحث :

وهى الخطوة الأخيرة من خطوات البحث التاريخى، ومرحلة العرض التاريخى ليست أسهل من المراحل الخمس السابقة، إذ يتعين على الباحث أن يكون متمتعًا بالكفاية والدراية الخاصة لعرض تقرير البحث ونتائجه. والبحث التاريخى الذى يقضى الباحث فى دراسته سنوات عديدة ينبغى أن يعرض بطريقة علمية، ذلك أن العرض التاريخى إذا لم يستوف الشروط الأساسية الخاصة به، فإنه يضيِّع الفائدة التى يمكن أن يجنيها العلم من مجهود الباحث، وما وصل إليه من نتائج .

وقد حدد علماء البحث التاريخى عدة شروط، يمكن أن نشير إلى بعضها على النحو التالى :

الأول: أن يكون للباحث الذى يستخدم منهج البحث التاريخى المقدرة على حسن التعبير باللغة التى يكتب بها، فعليه أن يعرف كيف يختار الألفاظ والأساليب التى تعبر عن غرضه، وأن يكتب بلغةٍ سهلة واضحة تلائم الموضوع الذى يتناوله؛ وعليه أن يكتب بأسلوبه الخاص الذى تتضح فيه شخصيته، فلا يقلد غيره من الكُتاب والباحثين .

الثانى: ألا يكتب الباحث ـ تقرير بحثه ـ بأسلوب أدبى صرف، لأن ذلك ربما يضطره إلى تغيير الحقائق، وإلى المبالغة فيما يكتب لإحداث الأثر المطلوب فى نفس القارئ، وليس المطلوب فى كتابة تقرير البحث أن يكتب الباحث قطعة أدبية مثيرة للعواطف؛ بل المقصود أن يعرض على القارئ بوضوح النتائج التى توصل إليها .

الثالث: إن على الباحث أن يكتب تقرير بحثه بطريقة يجمع فيها بين البساطة والدقة، وروح الفن لكى يعرض الحقائق والحوادث كما كانت، أو كما فهمها، وبالصورة التى تجتذب القارئ إلى الإقبال عليه والإفادة بما كتبه .

الرابع: ينبغى أن يلاحظ الباحث أن القارئ لم يطلِّع على الأصول والمصادر التى رجع إليها هو؛ فعليه أن يوضح للقارئ ما توصل إليه فى موضوعه من حيث كلياته وجزئياته؛ بتقديم الأدلة والبراهين على ما يقدمه من حقائق .

الخامس: ينبغى أن يكتب الباحث تقرير بحثه وفى ذهنه أن هناك احتمال لوقوعه فى الخطأ. ولذلك يتعين عليه أن يبادر بتصويب ما يمكن أن يكشف عنه من الأخطاء، إذا ما ظهرت له معلومات، أو أدلة جديدة. وعندما لا يكون واثقًا من نقطةٍ ما عليه أن يقرر ذلك بصراحة .

السادس: ينبغى أن تكون الهوامش جزءًا مهمًا فى أسفل الصفحات أو فى نهاية الفصل، لكى تضبط الوقائع الواردة فى متن التاريخ. إذ أنه فى أحوال كثيرة، يضطر الباحث إلى أن يورد فى الهامش نصًا أصليًا مأخوذًا من مخطوط، أو مطبوع، فيحسن أن يكون ذلك بلغة النص الأصلية، لأن ترجمة النص الأصلى قد تغير فى بعض معانيه .

السابع: أن ملاحق البحث، هى مجال لنشر أو تقديم مختارات من الأصول التاريخية التى اعتمد عليها الباحث، ولذلك فإن نشر بعض هذه الأصول هو أمر جوهرى، إذ أنه يقدم للقارئ المختص شيئًا من المادة الأولية التى استقى منها الباحث معلوماته، وينقله إلى المجال الذى استخرج منه الحقائق التاريخية .

الثامن: ينبغى أن تنظم قائمة المصادر والأصول والمراجع التى رجع إليها الباحث أبجديًا بحسب أسماء المؤلفين .

(لمزيد من التفاصيل عن منهج البحث التاريخى يمكن الرجوع إلى حسن عبد العال، ٢٠٠٤: ١٢٨ ـ ١٦٢).

وفى الختام يمكن القول أنه فى ضوء المقولة التى ترى أنه من الصعب فهم الحاضر دون الاستعانة بالماضى، نجد أن المنهج التاريخى يعتمد على فهم كل ما يتعلق بالماضى من آثار وحقائق وتصنيفها وتحليلها ومقارنتها، واستنباط بعض النتائج، فدراستنا للماضى تعيننا فى فهم الحاضر والتخطيط للمستقبل. ويستخدم المنهج التاريخى فى البحوث القومية التى تتناول الطابع القومى لشعب من الشعوب من النواحى السياسية والتاريخية والاجتماعية، ويمكن استخدامه فى الدراسات التربوية والنفسية ولا سيما فيما يتعلق بسيكولوجية النمو، فعن طريق هذا المنهج يمكن التحقق من بعض الفروض التى لا تزال موضع جدال كما سبقت الإشارة .

(خليل معوض، ١٩٨٣: ٣٨).

اعتبارات عامة يتعين مراعاتها فى البحوث والدراسات التاريخية:

هناك عدة تساؤلات تحتاج إلى الإجابة عنها عند استخدام المنهج التاريخى، وتعد الإجابات عن تلك التساؤلات بمثابة اعتبارات عامة فى هذا الصدد :

الأول: هل يقوم معظم البحث على المصادر الأولية؟ وإذا كانت قد استخدمت مصادر ثانوية، فهل تسهم بالبيانات الثانوية أكثر من مساهمتها بالأدلة الحاسمة فى حل المشكلة؟

الثانى: هل وُجد أكثر من شاهد عيان مستقل وثقة، لتأييد الحقائق الواردة؟ .

الثالث: هل أجرى بحث للتحقق من أمانة الشهود، وكفاءتهم وتحيزاتهم ودوافعهم وأوضاعهم وقت الملاحظة، وكذلك كيف، ومتى سجلوا ملاحظاتهم؟

الرابع: هل تم تمحيص المواد المصدرية تمحيصًا ناقدًا للتأكد من صحتها وإمكانية تصديقها؟

مصادر الحصول على البيانات في البحوث التاريخية وأساليب تحليلها ونقدها

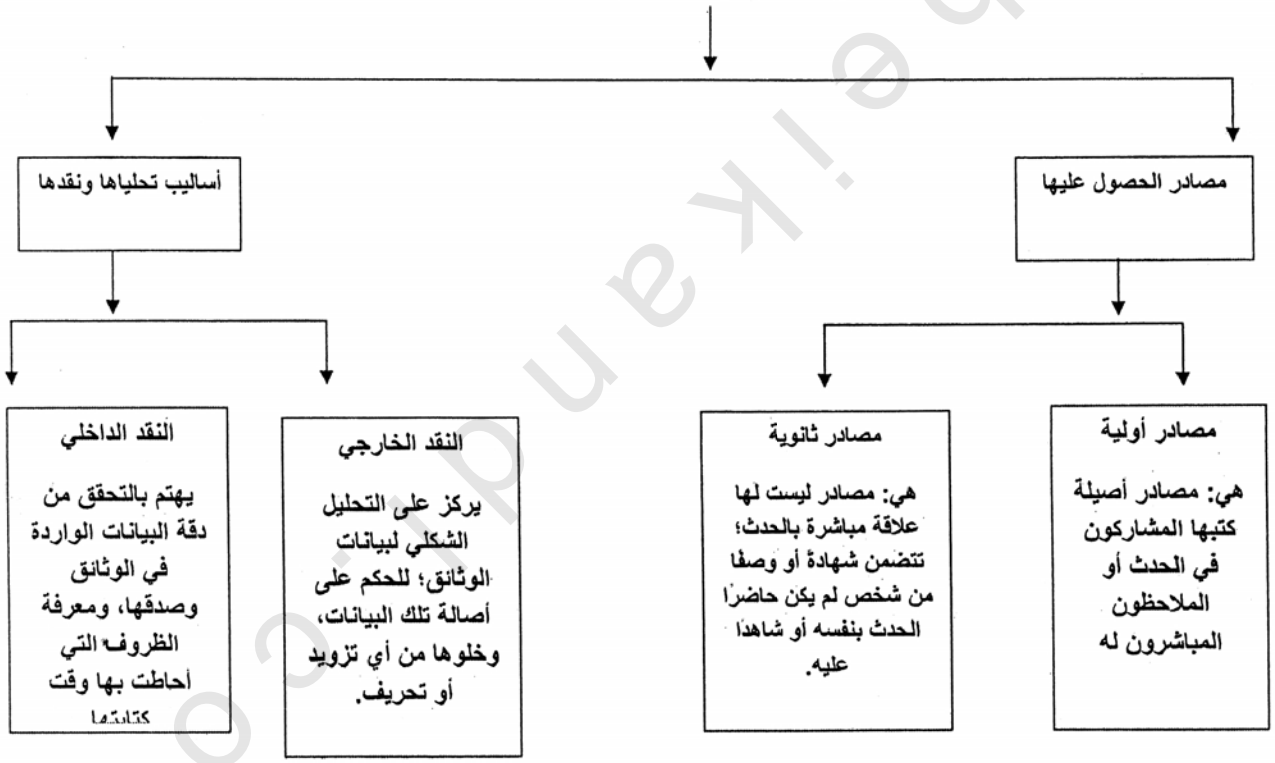

شكل (١) يلخص مصادر الحصول على البيانات في البحوث التاريخية، وأساليب تحليلها ونقدها

الخامس: هل تم تفسير كلمات الوثائق القديمة، وعباراتها، تفسيرًا صحيحًا، وهل يوجد أى دليل يثبت أن تصورات وأفكارًا متأخرة تدخلت أو أثرت فى فهمنا أو تفسيرنا لتلك الوثائق؟

السادس: هل تم الرجوع إلى الخبراء فى الميادين المساعدة لتحديد صحة البيانات؟

السابع: هل تم إرجاع المصادر إلى مؤلف، أو وقت، أو مكان معين؟

(فان دالين، ١٩٨٥: ٦٤٢ ـ ٦٤٣).

تقويم المنهج التاريخى:

عرفنا من الصفحات السابقة أن بعض الباحثين يعتقدون أن الدراسات التاريخية التى تستخدم الأسلوب التاريخى فى البحث ليست دراسات علمية وذلك لعدم خضوعها للتجريب وعدم القدرة على ضبط العوامل المؤثرة أو تثبيتها وعزلها بينما يرى باحثون آخرون أن إخضاع المادة التاريخية للنقد الداخلى والخارجى يوفر قدرًا من الدقة والموضوعية يرقى بالأسلوب التاريخى إلى مستوى الأسلوب العلمى إلا أن النظر إلى الأسلوب التاريخى كأسلوب علمى لا يمنع من ذكر الملاحظات التالية :

(١) أن المعرفة التاريخية معرفة جزئية يحكم طبيعتها حيث لا يمكن الحصول على معرفة كاملة للماضى وذلك بسبب طبيعة مصادر المعرفة التاريخية وتعرضها للتلف والتزوير ويصف " فان دالين" ما ذكره " جوتشاك " عن المعرفة التاريخية :

" بأن من شهدوا الماضى لا يتذكرون سوى جزء منه ولم يسجلوا سوى جزء مما تذكروا، وضاع جزء مما سجلوا، واكتشف الباحثون صحة جزء مما سجل وفهموا جزءًا من التسجيل الصحيح ونقلوا جزءًا مما فهموا وبذلك تبقى المعرفة التاريخية معرفة جزئية ."

(٢) يواجه الباحثون الذين يستخدمون المنهج التاريخى صعوبة واضحة فى تطبيق المنهج العلمى فى البحث وذلك بسبب طبيعة الظاهرة التاريخية وطبيعة

مصادرها وصعوبة إخضاعها للتجريب وصعوبة وضع الفروض وصعوبة التنبؤ بالمستقبل .

(٣) المادة التاريخية أكثر تعقيدًا من المعلومات والمعارف فى مجالات الحياة الأخرى، وبذلك يصعب على الباحث وضع فروض معينة واختبار هذه الفروض لأن علاقة السبب بالنتيجة فى تحديد الحوادث التاريخية ليست علاقة بسيطة فالأسباب متشابكة ويصعب رد النتيجة إلى أحدها .

(٤) لا تخضع المادة التاريخية للتجريب، وبذلك يصعب إثبات الفروض وتحقيقها تجريبيًا، فالمصادر التاريخية عرضة للخطأ ولابد من اعتماد ملاحظات الآخرين وأقوالهم لأن الباحث لا يتمكن من الاتصال المباشر بالمادة التاريخية .

(٥) يصعب الوصول إلى نتائج تصلح للتعميم فى البحوث التاريخية وذلك لارتباط الظاهرة التاريخية بظروف زمانية ومكانية محددة يصعب تكرارها بنفس الدرجة وكل ما يستطيع الباحث التاريخى عمله هو أن يتنبأ بما يمكن أو يحتمل أن يحدث لا بما سيحدث فعلًا .

(٦) أنه قد يكون من الصعب ـ فى بعض الأحيان ـ الحصول على المصادر الأولية، ولذلك فمن الانتقادات الشائعة التى يتعرض لها البحث التاريخى فرط الاعتماد على المصادر الثانوية. وبطبيعة الحال، كلما ازدادت المصادر الأولية فى البحث التاريخى كان ذلك أفضل .

إن الملاحظات السابقة لا تمنع من الثقة بالبحوث التاريخية، بل سيبقى البحث التاريخى هو الأسلوب الوحيد الذى يدرس ظواهر التطور الإنسانى والطبيعى فى مختلف مجالات الحياة، ولكن صعوبة البحث التاريخى لا تمنع من اعتماده كأسلوب بحث علمى خاصة وأنه يعتمد خطوات البحث العلمى من تحديد المشكلة إلى وضع الفروض وجمع المعلومات واختبار الفروض والوصول إلى التعميم والنتائج .